رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نقدات (١)[١]

ضلال الفلسفة:

خالق ومخلوق، رب ومربوب، موجِدٌ وموجود، تلك حقيقة تطامن لها الشعور مخبتًا، وسكن إليها الوجدان مطمئنًّا، وسرت علىٰ نورها الروح في متاهات الحياة، وخَرَّت لها بداهة الفكر ساجدة. «الله ربُّ العالمين» سمعها الإنسان الأول «آدم» من الله وآمن بها، وورَّثها من بعده بنيه..

ولكن الإنسان حين أخلد إلىٰ الدعة، وتيسر له ما كان عسيرًا من دواعي العيش، وتجافىٰ - في صَلَف - عن روح الدين، بدأ يحاول صدع الحق بأوهام الباطل، وتدنيس قداسة الإيمان بخَبث الكفر، وتلويث روحانية التوحيد بمادية الشرك الوثني...

كان أمس يبحث في الأرض عن العيش، ويفكر: كيف يندي ظمأه، ويكسو عريه، ويسد جوعه، ويسخر ما حوله لنفسه، ويحمي نفسه من الأعاصير والزلازل والبراكين، مطمئنًّا إلىٰ رب كريم قادر يحبه ويرعاه؟!.

فلما هداه ربه السبيل، واطمأن إلىٰ دنياه ورِغابه منها، وبدأ الشيطان يزلزل في نفسه طمأنينة الإيمان، ويحيلها إلىٰ قلق عاصف، ورَيب يُلَبِّسُ عليه - راح يفكر[٢]

---

(١) (٦/ ١٣٧٠).

(٢) لسنا بصدد تاريخ نشأة الفلسفة حين نبين أول ما اتجه إليه الفكر من الأبحاث الفلسفية، وإنما هو تحويمة حول الموضوع تؤدي ما نهدف إليه الآن.

- مثل هذا التفكير وسواه: من هو الله؟ ما ذاته؟ ما صفاته؟ ما صلته بالعالم الذي يعيش فيه، أخلَقه أم فاض عنه؟ وإذا كان قد خلقه، فهل ظل يرعاه ويربيه؟! ثم أين الله؟ أهو بائن عن العالم أم هو فيه؟ وإذا كان غير بائن فأين؟ وإذا كان بائنًا فأين؟! في هذه الظلمات التمردية سبح الفكر الإنساني العاجز الضعيف الجاهل بفطرته - بعد اطمئنانه إلىٰ مقومات العيش ونأيه عن الدين - وأجابه شيطان الغرور والترف المحطم لقواه عما سأل به نفسه بأجوبة، فكان من هذا ومن التفكير في مناح أخرىٰ: ما يسمونه فلسفة، فالفلسفة كما ترىٰ ترف عقلي، والترف جُله - إن لم نقل كله - فساد. فالفلسفة إذا استمكنت فساد بالنسبة للعقل وللإيمان، كما أن الترف المادي فساد للجسم ومقوماته وللأخلاق.

لقد عرف الإنسان ربه من ربه، لقد كلمنا الله عن نفسه، وكلام الله عن نفسه وصفاته وأفعاله وألوهيته وربوبيته كلام الخلاق الحكيم الخبير، أفيجيء العقل البشري - ذلك القزم الصغير يحاول أن يكون ماردًا عملاقًا جبارًا فيزعم أنه يعرف عن رب العالمين وعن ذاته وصفاته وصلاته بالعالم أكثر مما يعرف ربه الخالق؟!! ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عبس: ١٧].

يقول الله: إنه الخالق... والعقل الفلسفي ينفي صفة الخلق عن الله، وينسبها لشيء آخر فاض عن الله أو انحدر عنه، أو وجد من نظر الله إلىٰ نفسه، سموه أحيانًا: العقل الأول، وأحيانًا: الحقيقة المحمدية عند فلسفة التصوف الذي سموه إسلاميًّا. وأحيانًا وأحيانًا!

ويقول الله: إنه يعلم كل كبيرة وصغيرة، يعلم الكليات والجزئيات: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا

فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩] ولكن العقل الفلسفي ينفي ذلك عن الله، ويقول إنه يعلم الكليات لا الجزئيات!!

ويقول الله: إنه رب العالمين، وإنه معنا أينما كنا، وأنه أقرب إلىٰ عبده من حبل الوريد، وأنه يسمع دعاءنا ويجيبه، ولكن العقل الفلسفي بزعم العالم وجد عن الله ثم تركه فلا صلة له به اليوم ولا بعد اليوم!!

ويقول الله عن نفسه إنه استوىٰ علىٰ عرشه، وأنه العلي العظيم، ولكن العقل الفلسفي ينفي ذلك، ثم يحدثنا عن هذا بما نفهم منه ولابد: أنه عدم، أو أنه هو هذا الوجود المحس!!

ويصف الله نفسه بصفات كلها حق وجمال وجلال وخير، ولكن العقل الفلسفي يأبىٰ إلا أن يجرد الإله عنده من صفاته، فيصفه بالسلوب والعدميات، حتىٰ ليجعله ليس شيئًا، أو يصفه بما يجعله صورة ذهنية لا توجد إلا في الذهن فحسب، أو يصفه بمثل: (اللاذِّ والملتذ، والعاشق والمعشوق) من تلك الصفات التي وضع فيها الإنسان خبائث شهواته!!

ويأبىٰ العقل الفلسفي في خاتمة المطاف إلا أن ينكر الوجود الإلهي ويتمرد عليه، ولا يعترف بالوجود في قيمه إلا للإنسان، ذلك الإنسان المسكين الذي انقسم شطرين علىٰ نفسه، فجعل شطرًا منه إلهًا، وشطرًا منه إنسانًا، ما ثم إلا الوجود الإنساني(١)!

---

(١) لم ننسب الآراء إلىٰ قائليها الآن، فلسنا بحاجة إلىٰ ذلك. وربما عدنا إلىٰ الموضوع نفصله وننسب كل رأي إلىٰ قائله من الفلاسفة.

تلك خاتمة المطاف، وبئست هي من خاتمة للفلسفة.

ونحن لو استعرضنا تاريخ الفلسفة الميتافيزيقية، تاريخ ذلك الترف العقلي الذي أفسد علىٰ الإنسان دينه وعقله لشهدنا عجبًا، شهدنا أخلاطًا تجمعها كلمة واحدة «ضلالة»، تلك كلمة عابرة، وسنتبعها إن شاء الله بكلمات.

وحدة الأديان:

لكبار الزنادقة من الصوفية كابن عربي، والجيلي، وابن الفارض في تائيته رأي في الوجود الإلهي، يجعل من وجود الأعيان نفسها وجود الحق وعينه، أو بمعنىٰ أصرح: يجعل الخلق عين الخالق، فهما ذات واحدة، سميت مرة خلقًا، وأخرىٰ حقًّا، بحسب الباطن والظاهر.

ولهذا الرأي خطره الدائم الداهم علىٰ الدين والأخلاق، فهو ينفي المسئولية الأخلاقية، ينفي الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والثواب والعقاب، يجعل الشر ضريبًا للخير، والرذيلة مسمىٰ الفضيلة، ويجعل الشرك والكفر من أجلِّ حقائق التوحيد والإيمان.

وكان لهذا الرأي نتيجة حتمية، لم يتردد في التصريح بها زنادقة الصوفية، تلك هي أن الأديان علىٰ إطلاقها واحدة، لا يقصدون بذلك الأديان السماوية المنزلة علىٰ الرسل، بل كل ما اتخذه الناس دينًا، سواء كان وضعيًّا يعتمد علىٰ الأسطورة والخرافة، أم كان سماويًّا يعتمد علىٰ الوحي، فالمجوسية والوثنية في شتىٰ مظاهرها، والمسيحية الحقة والتي شابها الزيف واليهودية المبدلة والإسلام، كل هذه أديان واحدة، وكلها حق وهدىٰ، وكل متعبد علىٰ دين منها عابد لله حقًّا، صرح بهذا ابن عربي، وعبد الكريم الجيلي، وابن الفارض.

والذي أدىٰ بهم إلىٰ اعتناق هذه الزندقة: هو زعمهم أن وجود الخالق عين المخلوق، فإذا عبد الصنم والوثن بأي اسم وفي أي مظهر، كان المعبود إلههم، وكان العابد هو عين المعبود، لهذا بطل عندهم معنىٰ الثواب والعقاب، لأن الإله عندهم عابد ومعبود، إلههم ضال مهتد، كافر مؤمن، موحد مشرك، وكيف يعذب نفسه؟!! لا عذاب، وإنما هو من العذوبة، كما صرح ابن عربي.

ونحن لا نرسل القول إرسالًا، بل نستشهد علىٰ ما ذكرنا بما يقوله ابن عربي: (والعارف المكمل من رأىٰ كل معبود مجلىٰ للحق يعبده فيه، ولذلك سموه كلهم إلهًا مع اسمه الخاص بحجر أو شجر أو حيوان أو إنسان أو كوكب أو ملك)(١).

ويقول الجيلي عن وحدة الأديان - مفسرًا قول الله -: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ بقوله علىٰ لسان ربه: (فأنا الظاهر في تلك الأوثان والأفلاك والطبائع، وفي كل ما يعبده أهل كل ملة ونحلة، فما تلك الآلهة كلها إلا أنا) ثم يعلق بقوله: (إن الحق سبحانه وتعالىٰ عين الأشياء، وتسميتها بالإلهية تسمية حقيقية، لا كما يزعم المقلد من أهل الحجاب: إنها تسمية مجازية، ولو كان كذلك لكان الكلام: أن تلك الحجارة والكواكب والطبائع والأشياء التي تعبدونها ليست بآلهة، وأن لا إله إلا أنا فاعبدوني، لكنه إنما أراد الحق أن يبين لهم أن تلك الآلهة مظاهر، وأن حكم الألوهية فيهم حقيقة وأنهم ما عبدوا في جميع ذلك إلا هو، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ أي ما ثم ما يطلق عليه اسم الإله إلا وهو أنا)(٢).

---

(١) ص(١٩٥) الجزء الأول من فصوص الحكم، بشرح وتحقيق الدكتور أبو العلا عفيفي.

(٢) (صـ٦٩/ جـ١) من كتاب الإنسان الكامل، لعبد الكريم الجيلي ط ١٢٩٣هـ.

هذا الضلال أبين من أن يدلل أحد علىٰ بطلانه، وتلك الأسطورة - أسطورة وحدة الأديان بالمعنىٰ الصوفي - بطلانها أظهر من كل بطلان؛ ومن عجب أن تجد تلك الزندقة الملحدة من يذود عنها، ويمجدها من العرب المسلمين، ذوي الأسماء اللماعة المدوية الصيت!

في يدي الآن كتاب: «القضايا الاجتماعية الكبرىٰ» للدكتور عبد الرحمن شهبندر ط ١٩٣٦، يتحدث الدكتور فيه عن التعصب الديني، وأنه عقبة في سبيل البحث، ثم استطرد ممجدًا لابن عربي وقصيدته في وحدة الأديان، فيقول عن تلك القصيدة: (طالما استشهدنا بها علىٰ سمو الشعور الديني عند العرب، وجعلناها عنوانًا لا للتعمق فقط، بل له وللعقيدة والمبدإ أيضًا، ذلك أن ابن العربي(١) كان من القائلين بوحدة الأديان، ويرىٰ جميع المتدينين يعبدون الإِله الواحد المتجلي في صورهم وصور جميع المعبودات، والقصيدة هي:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلىٰ دينه داني
وقد صار قلبي قابلًا كل صورة فمرعىٰ لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان، وكعبة طائف وألواح توراة، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنىٰ توجهت ركائبه، فالحب ديني وإيماني

وابن العربي هذا لا حاجة به إلىٰ من يذكره من المتشددين الثقيلي الوطأة بأن هناك في بعض الأديان المنحطة من السخافات والأعمال المنكرة ما لا يجوز أن

---

(١) جرت العادة علىٰ تلقيب محيي الدين الحاتمي الصوفي بابن عربي من غير (ال)؛ تمييزًا له عن أبي بكر بن العربي الفقيه المالكي، ولكن الدكتور أخطأ هنا.

يتسع لها قلبه، أو يطمئن إليها لبه، فهذا كله كان معلومًا عنده، إلا أنه كان في موقفه المستجد أسمىٰ من أن يفوته المعنىٰ العظيم المتجلي الشامل، بانصرافه إلىٰ الجزئيات الموضعية الخاصة؛ وإذا كان الكون في نفسه الحساسة الصافية أشبه بقطعة شعرية نفيسة منسجمة فمصراع واحد معوج، أو بيت واحد فاسد، لا يحول دون تمتعه بالقصيدة كلها كاملة، وإعجابه بالفنان المبدع الذي أجاد نظمها وأحكم قوافيها ووزنها، وخذ مثالًا آخر علىٰ هذه الروح السمحة الرفيعة ما قاله ابن الفارض الحموي المصري، المتوفىٰ سنة ٦٣٣هـ في تائيته الكبرىٰ:

وإن نار بالقرآن محراب مسجد فما بار بالإنجيل هيكل بيعة
وإن عبد النار المجوس، وما انطفت كما جاء في الأخبار في ألف حجة
فما قصدوا غيري، وإن كان قصدهم سواي وإن لم يظهروا عقد نية
فلا عبث، والخلق لم يخلقوا سدىٰ وإن لم تكن أفعالهم بالسديدة

انتهىٰ نص كلام الدكتور الشهبندر...

واأسفاه، هذا مثل عال يتحطم أمام عيني!!

لقد كنا نسمع عن الدكتور وموقفه وعربيته وإسلاميته، فنعجب ونصفق حتىٰ ندمي الأكف من التصفيق إعجابًا وثناءً، كان الدكتور شهبندر زعيمًا عربيًّا كبيرًا، ومن عجب أن يجعل الزعماء تمجيد الإلحاد والزندقة وسيلة للزعامة.

إن هذا الزعيم العربي الكبير في سبيل تملق الباحثين من الغرب وخرافاتهم حول ما يسمونه التسامح الديني، الذي هو في حقيقته إلحاد، يحاول تمجيد رأي ابن عربي ليثبت للغربيين أننا أسبق منهم تسامحًا، أو بمعنىٰ أدق: أسبق منهم إلحادًا!!

فما ذلك التسامح الديني الذي يشيد به الدكتور شهبندر، ويصف من يعترض عليه بالمتشددين الثقيلي الوطأة!! إنه يشيد بالوثنية بالمجوسية بالزندقة، بعبادة عجل بني إسرائيل بالتحلل من كل خلق وأدب وفضيلة، بالإباحية المطلقة!! أفذلك تسامح ديني؟! فيوصف الملحد الزنديق بأنه متدين متسامح؟! إذا كانت دعوة ابن عربي إلىٰ وحدة الأديان وضعيها وسماويها، باطلها وحقها تسمىٰ تسامحًا، فلا كان ذلك التسامح، إن دعوة ابن عربي هي تكذيب صريح لنص القرآن: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، أفمن يكذب القرآن نشيد بتسامحه الديني؟!!

إننا نلمح من ثنايا كلام الدكتور إعجابًا شاعريًّا، وهوىٰ ضالعًا مع زندقة ابن عربي وزميله ابن الفارض في تائيته، نلمح ثورة نفسية مكبوتة علىٰ المتدينين الذين يتعصبون للحق بوصفه إياهم أنهم «ثقيلون شديدو الوطأة».

أفمن يدعو إلىٰ عبادة الله وحده نعتبره ثقيلًا شديد الوطأة؟! أفمن يدعو إلىٰ نبذ الشرك وتحطيم الأصنام، وإخلاص العبادة لله وحده ثقيل شديد الوطأة؟!

ألا إني سوف أطلقها صريحة واضحة جلية: إن معنىٰ التسامح الديني ومفهومه عند أربابه: مرادف للخروج عن الدين، بل هو الانسلاخ من الدين الحق إلىٰ دين الهوىٰ والشيطان، ورضي الله عن أنس بن مالك إذ يقول لأصحابه: «والله إنكم لتعملون العمل ترونه في أعينكم أدق من الشعرة، وكنا نراه علىٰ عهد رسول الله ﷺ من الموبقات».

ترىٰ هل نسمع كلمة الكفر فنسكت عليها؟ وهل نشاهد علىٰ الأرض مئات الطواغيت فنسكت راضين، ليقال عن ذلك إنه تسامح ديني!!

أنسكت عمن يكتب عن الله سبحانه الهجو والهراء والبذاء لنعرف معنىٰ التسامح!!؟

ترىٰ هل كان يتسامح الدكتور وشيعته من أبواق الفرنجة وعبيدهم: لو طعنه أحد في وطنيته، في شرفه. لا أقول: في عقيدته!!

ترىٰ لو هجا أحد عرضه أكان يسكت عنه تسامحًا؟! لو سابَّه سافل دنيء أكان يغفر له تسامحًا؟!

ألا إن من عجب الشيطان تسخيره للإنسان مثل هذا التسخير! يشتمك إنسان عادي مثلك فيثيرك حتىٰ تقتله، ويشتم الكفور الحقود ربك العظيم، فيملأ الشيطان خياشيم شهواتك بأسطورة التسامح، حتىٰ تكفر بربك!! هأنتذا ترضىٰ هجو الله ولا ترضىٰ هجو نفسك، هذا هو هدف التسامح الديني!!

وقد تعرض لنقد أسطورة وحدة الأديان الإمام ابن تيمية، وقد تعرض لهذا النقد الدكتور محمد مصطفىٰ حلمي في كتابه: «ابن الفارض والحب الإلهي» يحاول نقضه، وموعدنا إن شاء الله العدد القادم حيث نبين صحة نقد الإمام، وزيف دفاع الدكتور؛ والله الموفق المستعان.

* * *

نقدات (٢)

وحدة الأديان عند الصوفية(١)

المعرفة عند الصوفية:

نمهد لحديثنا اليوم بهذا التمهيد اللماح عن المعرفة عند الصوفية... يستمد الصوفية معارفهم - في زعمهم - عن طريق «الذوق» أو الكشف الشهودي؛ ولذا تتباين المعارف عندهم تبعًا لتباين الأذواق، وقد لجأوا إلىٰ هذه الأسطورة حين أيقنوا أن معرفتهم تصادم العقل والنقل وتناقضهما؛ ويؤمن الصوفية إيمانًا وثيقًا بأن العقل ليس وسيلة إلىٰ إدراك الحقيقة، وبأن النقل حجاب يستر وراءه الحقيقة الكبرىٰ، ولذا يقول التلمساني: (القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا)(٢).

وكان من قولهم: (من ذاق عرف) أي من استمد معرفته عن طريق الذوق كان هو العارف المكمل، أما من يستمد معرفته من الدين فهو من أهل الظاهر المحجوبين عن إدراك كنه الحقيقة الإلهية الكبرىٰ، أو بمعنىٰ أوضح: عن إدراك حقيقة الألوهية التي يقوِّم وجودَها عندهم وجودات العالم الظاهر.

وقد شطح بهم الذوق الأسطوري إلىٰ اعتناق خرافة «وحدة الوجود»، وبالتالي إلىٰ اعتناق خرافة: «وحدة الأديان» بالمعنىٰ الصوفي؛ فعن إيمانهم بوحدة

---

(١) (٣/ ١٣٧٠هـ).

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل (جـ٤/ صـ٢٣).

الوجود نتج إيمانهم بوحدة الأديان.

علاقة وحدة الوجود بوحدة الأديان:

آمن الصوفية أن وجود الخلق عين وجود الحق، فالمظاهر عين الظاهر، والعبد عين الرب، والمخلوق هو بذاته الخالق، ويعبر ابن عربي عن ذلك بقوله: (سبحان من خلق الأشياء، وهو عينها)(١) والإيمان بهذه الأسطورة - فوق أنه زندقة وإلحاد وإنكار صريح للألوهية - يهدر القيم الأخلاقية والدينية، وينفي المسئولية، فإله الصوفية هو عين الصنم في الجاهلية، والعجل في السامرية، وهو بذاته عابد الصنم وعابد العجل، فكيف إذن يوجد إيمان وكفر؟ إذا كان الإله معبودًا من وجه وعابدًا من وجه آخر؟؟!

لهذا صرح الصوفية - وقد آمنوا بوحدة الوجود - بوحدة الأديان حتىٰ ذهبوا مع الزندقة إلىٰ آخر مداها، وانحطوا مع الوثنية إلىٰ قرارها السحيق، فالإيمان بوحدة الأديان نتيجة حتمية - كما ترىٰ - للإيمان بوحدة الوجود.

نتائج الإيمان بوحدة الأديان:

ويعني الصوفية بالأديان: كل ما جعله أي إنسان دينًا سواء كان سماويًّا أم وضعيًّا، صحيحًا أم زائفًا، قائمًا علىٰ التوحيد الحق، أم علىٰ الوثنية المشركة والإيمان بوحدة الأديان - بهذا المعنىٰ - يمزج الضدين، ويجمع بين النقيضين، يخلط الإيمان بالكفر والحق بالباطل، والخير بالشر، والوجود بالعدم. الإيمان بوحدة الأديان عند الصوفية ينتج عنه الإيمان بأن ليس ثمت آخرة، ولا بعث ولا جزاء

---

(١) الفتوحات المكية القاهرة ١٣٢٩(ج ٢/ ص٦٠٤).

ولا حساب، ولا دينونة، فالصوفية في غايتها تتلاقىٰ مع المادية الصرفة في نهايتها.

ولا يخدعنك شقشقة الصوفية ولهجهم أحيانًا بالخوف والرجاء، فما هي إلا حبائل يوقعون بها السذج الغافلين في شراكهم، وإلا فبربك قل لي: إذا كان الإله هو نفسه هذه الموجودات المتعينة في موادها، فهل لهذا الإله دنيا وآخرة؟!

إذا كان الإله كافرًا مؤمنًا، شريرًا خيرًا، باطلًا حقًا، عاصيًا طائعًا، ضالًا مهتديًا، فعن أي حاليه يجزي نفسه؟؟

أو يرضىٰ الإله الخزي لنفسه فيقيم لنفسه حسابًا عسيرًا، أو يدين نفسه بالجريمة الفاضحة المفضوحة يوم الدينونة؟!

أو يموت الإله ثم يحيا؟؟! أقولها صريحة جلية دون مخافة من تثريب: إن كبار الصوفية يكفرون بالبعث وبالجزاء لأنهم يكفرون بالألوهية والربوبية، وإن حاولوا الصريخ والعويل... فإيمانهم بالوحدتين الوجودية والدينية يدمغهم - رضوا أم سخطوا - بما قلناه.

ولذا تأول زعماؤهم كل ما ورد عن الجزاء الأخروي وعن الآخرة بمعناها الديني الصحيح، فجعلوا العذاب من العذوبة، والقيامة عودة الإله إلىٰ حيث كان قبل التعين الأول في الحقيقة المحمدية...

بعد هذا نعود إلىٰ ما وعدنا به قراءنا الأفاضل من قبل من مناقشة الدكتور محمد مصطفىٰ حلمي في نقده للإمام ابن تيمية فيما دمغ به الصوفية من كفرهم حين دانوا بوحدة الأديان.

رأي الدكتور حلمي(١):

الدكتور الفاضل معجب أيما إعجاب بأسطورة ابن الفارض فيما يسميه: «الحب الإلهي»، وقد جلىٰ الدكتور في بحثه هذه الأسطورة جلاءً واضحًا، غير أنا نلاحظ أن بحث الدكتور لم يكن خالصًا للحقيقة والفكر الصحيح، وتلك ليست من سمات الباحثين في حقائق الفكر العليا، بل نلاحظ العاطفة جامحة مشبوبة الهوىٰ، نلاحظ دفاعًا عاطفيًّا حارًّا عن ابن الفارض، وتمجيدًا له في زندقاته، ونحن لا نملك أن نمنع الدكتور من محبته ابن الفارض أو تقديسه، ولكنا نملك بعون الله الذياد عن الحق فكريًّا ودينيًّا، ذلك الحق الذي حاولت عاطفة الدكتور الفاضل أن تجليه باطلًا، لا سيما وقد حاول الدكتور وهو في فورة العاطفة الصوفية أن يجد لابن الفارض سندًا من القرآن يؤيد زعمه في أسطورة وحدة الأديان، ويبلغ الإعجاب بالدكتور حدًّا يجعله يلح في الطلب أن نتمثل صوفية ابن الفارض في ناحيتيها الروحية والعملية، حتىٰ ليقول: (وهل هناك حياة أنعم حالًا وأوفر كمالًا من هذه الحياة التي يبسط عليها الحب والإخاء والمساواة أجنحتها علىٰ هذا الوجه الذي يصوره لنا مذهب ابن الفارض في الوحدة، وحدة المحب والمحبوب، وحدة الخلق والحق، وحدة الأديان والشرائع؟

إذ تزول كل مظاهر التفرقة بين أفراد النوع الإنساني، فينظر المعتنقون للأديان المختلفة، علىٰ أنهم إخوة متحابون متساوون، لا علىٰ أنهم أعداء متباغضون متنافرون(٢)»، إذن فالدكتور الفاضل يقر - مع الأسف - بإيمان ما ذهب إليه

---

(١) وضح الدكتور رأيه في كتابه: «ابن الفارض والحب الإلهي» طـ١٩٤٥.

(٢) (ص٣١٦) من كتاب ابن الفارض والحب الإلهي.

الصوفية من وحدة الأديان سماويها ووضعيها، صحيحها وزائفها..

ولست أدري كيف تشمل الوحدة جماعة أربابها متفرقون؟؟

كيف يشمل الإخاء قلبًا يعبد الله وآخر يعبد الصنم؟

كيف يشمل الحب مؤمنًا مخبتًا لله الذي يأمره بمجانبة الشرك والوثنية، وآخر يعبد هواه المصور في صنم أو عجل أو بهاء؟

كيف يتوحد العالم وليست هنالك وحدة تشمل آلهته المعبودة في قلوب العابدين.

إن المؤمن بإله يعمل بما شرعه له ذلك الإله، أو بما يشرعه الزاعمون أنهم وسطاء له، ولا ريب في أن هناك تباينًا بعيدًا وتناقضًا بينًا في تلك الشرائع، وتبعًا لهذا تتباين الأعمال والأخلاق والعقائد، أتكفي الإنسانية وحدها لتكون رباطًا يربط هذه القلوب؟

من ذا الذي سيزيل كل مظاهر التفرقة بين أفراد النوع الإنساني، والأديان السماوية - في سموها وجلالها ودأبها وسعيها الملح - لم تزل تلك التفرقة في الواقع، رغم أنها حاولت ذلك في كل زمن، وتسلحت بالحق والصبر والعزيمة والهدىٰ والنور؟

فالدارس للتاريخ يجد أن العالم كله لم يجتمع يومًا علىٰ كلمة واحدة؛ هذا هو الشأن مع الأديان السماوية، فكيف مع الوضعية؟ أيريد الدكتور إرغام العقول علىٰ أن تفهم أن رباط الإنسانية أقوىٰ من رباط الدين؟

لا يا دكتور، فالدين أيًّا كان له قوة هائلة تدفع إلىٰ التضحية الهائلة معتنقيه، ومع ذلك كله، فلم يجمع العالم حتىٰ اليوم دين واحد ولا حب واحد، الناس شأنهم دائمًا مع الدين: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورىٰ: ٧]، أما هذه

الشاعرية، أما تلك الخيالات المجنحة بالتهاويل، أما تلك الأساطير المقنعة بالأوهام والشهوات؛ فلن تستطيع مصادمة الحق والواقع، وإذا شئت العمل في سبيل وحدة تشمل الناس فلتكن تحت راية دين واحد، هو الحق والصدق والخير والجمال وهو الإسلام، وهو إخلاص العبادة لله وحده، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع، لا تحت طاغوت صوفية ابن الفارض وشيوخ ابن الفارض الوثنيين، أعداء الله ورسله، بل أعداء الإنسانية من أول الدهر.

فالتاريخ يحدثنا حديث صدق: أن الجماعة الإسلامية الأولىٰ كانت هي الجماعة الإنسانية المثالية في سمو الروح، وقوة العزيمة وسماحة الأخلاق، ونبل الإيثار، وجلال التضحية في سبيل المثل العليا، وشمول الرحمة، والتوحيد الشامل التام في المبادئ والغايات؛ ويشهد التاريخ أيضًا أن الفرد في هذه الجماعة كان لا يهدف إلا إلىٰ خير جماعته ورقيها، ودوام وحدتها نقية صافية، ولقد عاش في ظل هذه الجماعة الإسلامية المسيحي واليهودي وسواهم، عاش هؤلاء جميعًا يرف عليهم العدل والأمن ويغمر دنياهم الرضىٰ، ويرعىٰ أيامهم السلام، أتعرف لماذا يا دكتور؟

لأن هذه الجماعة كانت معتصمة بدينها الحق، هداها القرآن، ومشكاتها السنة، أما عهود الوثنية والمجوسية والمسيحية الزيفاء واليهودية الضالة فكانت عهود استبداد وبطش، وعبودية ذليلة للسلطان الغشوم.

كان الجور لحمتها والطغيان سداها، كانت تتنزىٰ جريمة وفسقًا، وكانت تهوي انحطاطًا في الخلق والفكر والعقيدة، كانت عهود جريمة فردية وجماعية؛ لأنها كانت تتولىٰ الشيطان وتكفر بالرحمن.

فهل يريد دكتورنا الفاضل أن نكون خليطًا وأوشابًا وأمشاجًا من هؤلاء،

ومع ذلك نكون وحدة يرعاها السلام والوئام؟!

أعقيدة مشرقة الوحي من السماء، وشريعة يقطر سلسها من الوحي الرشيد، هذان لا يصلحان لتكوين وحدة إنسانية تتمثل الحب خلقًا، والتفاني في الإيثار غاية، ومع ذلك تصلح صوفية ابن الفارض لهذا يا دكتور؟!

اللهم إن هذا قول يحيله العقل السليم، ويصمه الدين بالخرافة الملحدة.

ليت الدكتور يدرس الحب في الإسلام - من كتاب الله وهدي رسوله ﷺ - كما درس الحب عند ابن الفارض، حتىٰ يعلم أن ما يزعمه ابن الفارض حبًّا، إن هو إلا غَيٌّ وهوىٰ، وزندقة وتمجس سحْرِيٌّ القناع، مبدؤه ومنتهاه عبادة الشهوات.

لقد زعمت الفلسفة أنها تتجرد في بحوثها للحق، فهل تجرد دكتورنا الفاضل في بحثه هذا لما زعمته الفلسفة، أم تراه جنح جنوحًا ومال ميلًا حاول به أن يتسامىٰ بصوفية ابن الفارض إلىٰ الذروة العليا من الروحية، دون أن يبالي الدكتور في سبيل هذا بالدين أو بالحق الواضح الصريح؟!

إن من يقارن بين فكرتين يا دكتور يجب أن يكون خبيرًا بهما، حتىٰ يستطيع أن يحكم بالحق، ولكنك - فيما ظهر لي - لا تعلم عن حقيقة الدين الإسلامي شيئًا، وإلا لما رفعت وحدة ابن الفارض ووثنيته وإباحيته فوق توحيد القرآن وهداه.

وليعذرني الدكتور الفاضل - رغم أني كنت تلميذه يومًا - إذا قلت له: كن حلسًا لزندقة ابن الفارض ما شئت، ولكن حذار أن يكون ذلك علىٰ حساب القرآن يا دكتورنا العزيز.

* * *